التصوف ودوره في ترسيخ العلاقات الروحية بين المغرب وبلدان إفريقيا جنوب الصحراء



د. محمد الصافي
أستاذ باحث في التاريخ
أكاديمية جهة كلميم واد نون
- المغرب -

ملخص

أصبحت الطرق الصوفية والزوايا من الظواهر الإسلامية والاجتماعية التي لا يمكن إغفالها في تاريخ المغرب مع إفريقيا، حيث نشأت كمراكز علمية ودينية لهدف تربوي تعليمي، وكملاجئ للمحرومين وأبناء السبيل، ومنتدى للعلماء والفقهاء والطلبة، ومواقع تبصر فكري وديني كذلك. وكان مؤسسو الزوايا من المشايخ الذين نالوا احترام الناس وتقديرهم لورعهم وتقواهم، ويذكر أن الخطاب المغربي الذي كان موجها صوب إفريقيا السوداء في ذلك الوقت كان بعيدا ومفارقا للخطاب الأوروبي القائم على العنف والسيطرة.

وفي هذا الإطار ذهب بعض الفقهاء إلى التأكيد بأن معظم الزوايا والطرق الصوفية الإسلامية المنتشرة في إفريقيا أصلها من شمال إفريقيا، وهي كل من الزاوية القادرية والزاوية التيجانية على سبيل المثال، وتعد هذه الأخيرة أهمهم وأنشطهم بفضل الدور الذي تلعبه في دعم وتوطيد العلاقات بين المغرب ودول القارة السمراء.

Abstract:

Sufi and angles become Islamic and social phenomena that can not be overlooked in the history of Morocco with Africa, where I grew up scientific and religious goal of educational tutorial centers and shelters for the destitute and the wayfarers, and a forum for scientists, scholars and students, and locations of insight intellectual and religious as well. The founders of the corners of the sheikhs who have won people's respect and appreciation for Orahm and piety, and states that the Moroccan speech, which was directed towards black Africa at that time was far away and Mpharka European speech-based violence and domination.

In this context, some scholars went on to emphasize that most of the corners and Sufi Islamic deployed in Africa originated from North Africa, which is both Qadiriya corner and corner Tijaniyya For example, the latter is most notably and their activity thanks to the role it plays in supporting and consolidating relations between Morocco and the countries of the continent brown.

مقدمة:

لقد ظهر التصوف كممارسة دينية بالمغرب ابتداء من القرن الحادي عشر الميلادي من قبل حجاج الأماكن المقدسة، وتطور ونمى على يد «المولى عبد السلام بن مشيش» ليستكمل نضجه علي يد تلميذه «أبي الحسن الشاذلي» في القرن الثاني عشر الميلادي المشخص لمرحلة مغربة التصوف، والذي وصل ذروته مع «محمد بن سليمان الجزولي»[1].

ولعل أهم ما يميز التاريخ المغربي بعد الفترة الموحدية والمرينية على وجه التحديد فيما يخص الحياة الدينية هو هيمنة الفكر الصوفي الطرقي، والذي كانت له عدة أدوار منها ما هو متعلق بالمجال السياسي والاجتماعي والتربوي والاقتصادي، حيث أن جل أنظمة الحكم التي سادت المغرب كانت منبثقة عن الزوايا الصوفية والمتصلة بالنسب الشريف والقدر الكافي من التدين السليم، إضافة إلى أن الزوايا لعبت دورا كبيرا في حماية المغرب من الخطر والاحتلال الأجنبي خصوصا في القرنين 17 و18م، وذلك بالدعوة إلى الجهاد لردع الخطر الأوربي الإسباني منه والبرتغالي.

ومن جهة أخرى فقد كان للزوايا دور فعال في مقاومة المستعمر، وقد أكد «بوني موري» في كتابه «الإسلام والمسيحية في إفريقيا» أن الإسلام كان من شأنه أن يغزو إفريقيا عن بكرة أبيها لولا الضربة التي أنزلتها فرنسا بالطريقة التجانية، فتوقفت على غرار توقف المد الإسلامي في أوربا عن طريق «شارل مارتيل» في بواتيي ببلاط الشهداء، ومهما يكن فان المستعمرين قد لمسوا أكثر من غيرهم تلك القدرة الكبرى على الصمود والمقاومة التي خولتها الطرق الصوفية للزحف الإسلامي في إفريقيا[2].

إن انتشار التصوف في المغرب في البداية كان يهدف أساسا إلى نشر الإسلام فيما وراء الحواضر، حيث بدأ منذ القرن الثالث عشر الميلادي يتوغل في الأرياف، وبدء من القرن الرابع عشر الميلادي انتقل التصوف من الإطار الدعوي إلى الإطار السياسي، وبدأت المعالم الأولى للطرق الصوفية تتشكل في العهد الموحدي ليكتمل هذا التشكل مع أبي عبد الله محمد بن سليمان الجزولي الذي يعتبر مؤسس أول طريقة صوفية في المغرب، جراء التحولات التي طرأت على بنية المجتمع، ويمكن القول بأن الطرق الصوفية أصبحت ابتداء من القرن الخامس عشر الميلادي مؤهلة لتزويد البلاد بنظام الحكم، وامتدت الصوفية المغربية إلى ما وراء الحدود، فتأسست بمختلف أقاليم الشمال الإفريقي - بل وحتى في مصر - زوايا تقتبس من معين الطرق المغربية كالعيساوية والتيجانية والوزانية بتونس، كما أحدث المغاربة أورادا خاصة لطرق خارجة عن المغرب مثل القادرية.

فما المقصود إذن بالتصوف؟ وما مفهوم التصوف السني؟ وما مصادره؟ وكيف نشأ التصوف بالمغرب؟ ثم ما الدور الذي لعبه العلماء المغاربة لدحض كل الاتجاهات والعقائد المنحرفة والمنافية لتعاليم القرآن

والسنة النبوية؟ وكيف ساهم التصوف السني في تثبيت الدعائم الحضارية والروحية بين المغرب وبلدان إفريقيا جنوب الصحراء؟

في مفهوم التصوف السني ومصادره ونشأته بالمغرب:

1 . مفهوم التصوف:

إن العلماء اختلفوا كثيرا وطويلا في تعريف التصوف، وصعب على الباحثين وجود تعريف له، ذلك أن التصوف ليس مذهبا قائما على حدود ضيقة أو أصول أو قواعد محدودة، ولا هو علم ذو حدود خاصة وموضوعات معينة، يمكن اكتسابه بمجرد الاطلاع عليها والإلمام بها، وإنما هو قبل كل شيء سلوك ومعاملة وزهد وعبادة، وعزوف عن الدنيا وإقبال على الله، وهو بالتالي ثمرة الإخلاص في العبادة والمجاهدة في الله.

قال القشيري (ت 465هـ) في «رسالته القشيرية»: «اعلموا رحمكم الله أن المسلمين بعد رسول الله ‌أ لم يتسم أفاضلهم في عصرهم بتسمية سو ىصحبة رسولا لله، إذ لا فضيلة له فوقها فقيل لهم الصحابة، ولم أدركهم أهل العصر الثاني تسمى منصحب الصحابة التابعين، ورأوا ذلك أشرف سمة ثمقيلل من بعدهم أتباع التابعين ثم اختلف الناس وتباينت المراتب فقبل خواص الناس الزهاد والعباد، ثمظهرت البدعة وحصل التداعي بين الفرق فكل فريقا دعوا أنفيهم زهاداً، فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفاسهم مع الله سبحانه وتعالى، الحافظ ونقلو بهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف، واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة»[3].

وعرفه ابن خلدون بقوله: «هذا العلم . يعني التصوف . من العلوم الشرعية الحادثة في الملة، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة، وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف، فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختفى المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة»[4].

وعلى كل حال فالتصوف لدى القشيري وابن خلدون لا يبدو لنا علماً مستحدثاً وجديداً، وإنما مأخوذا من سيرة الرسول ‌أ وصحبه، كما أنه ليس مشتقا من أصول لا تمت إلى الإسلام بصلة كما يزعم بعض المستشرقين الذين ابتدعوا أسماءً مبتكرة لاسم التصوف، إذ ربطوا الفكرة الصوفية الإسلامية بالتصوف البوذي والهندي والأفلاطوني والنصراني والفارسي، والقصد هو تشويه لفظة التصوف وجعلها فلسفات قديمة وضالة[5]. ويؤكد حاجي خليفة ما ذهب إليه القشيري في رسالته القشيرية من أن كلمة التصوف ظهرت للمرة الأولى نهاية القرن الثاني للهجري، إذ يشير بقوله: «ثمظهرت البدعة وحصل التداعي بين الفرق، فكل فريق ادعوا أن فيهم زهاداً، فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفسهم مع الله سبحانه وتعالى الحافظ ونقلو بهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف، واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة»[6].

إن كلمة التصوف ظهرت في القرن الأول الهجري بدليل ماروي عن الحسن البصري الذي يعد من كبار أئمة التصوف(21 . 110هـ/642 . 728م) أنه قال: «رأيت صوفياً في الطواف فأعطيته شيئاً فلم يأخذه و قال: معي أربعة دوانيق[7] فيكفيني ما معي»[8]، وقال أيضا: «أدركت سبعين بدرياً كان لباسهم الصوف»[9]، كما روي عن سفيان الثوري

وهو إمام في الحديث والتفسير (97. 161هـ/715. 778م) أنه قال: «لولا أبو هاشم الصوفي[10] ما عرفت دقيق الرياء»[11]، فضلا عن قول أبي موسى الأشعري (42هـ/622م) في وصفه للرسول ﷺ أنه قال: « كان يلبس الصوف ويركب الحمار، وقال أيضا: يابني لو رأيتنا ونحن مع نبينا (ص) إذا أصابتنا السماء وحدث منا ريح الضمان من لباسنا الصوف»[12].

وفي المعجم الوسيط نجد: «التصوف طريقة سلوكية قوامها التقشف والتحلي بالفضائل، لتزكو النفس وتسمو الروح»[13]، وفي نفس الإطار يرى البعض بأن التصوف «مأخوذ من الصفاء، ثم غلبت تسميته على المؤمنين الذين صفوا أنفسهم لله وآثروا حب الله ورسوله على أنفسهم وقاموا بالدعوة إلى الهدى وإحياء سنة رسول الله ﷺ، وعملوا للدين والدنيا، فهؤلاء مع الله ومع الرسول ﷺ، لأن تصوفهم مزاج كامل بين متعة الحلال والبعد عن الحرام»[14]. وهناك من يرى أن التصوف من الصُّفة، وهي «فناء ملحق بمسجد الرسول ﷺ بالمدينة المنورة»[15].

ويعرف ترتيب القاموس المحيط أهل الصُّفة بأنهم: «كانوا أضياف الإسلام، كانوا يبيتون في مسجده ﷺ، وهي موضع مظلل في المسجد»[16].

وعلى صعيد المبادئ، «فذكر التصوف يبعث دائما على التفكير في الزهد والتقوى والإخلاص والورع والإيمان القوي والمبالغة في العبادة، وتزكية النفس وإجلاء البصيرة وهيمنة الروح، والتمسك الشديد بالسنة والحب الإلهي القاهر الجارف الذي انفرد به الصوفية من بين الطوائف الإسلامية»[17].

وهكذا يتبين بشكل جلي أن «التصوف منهج روحي وجداني يقوم على مجاهدة النفس للأهواء، وعلى تذوق حلاوة البعد الروحي في العبادة، وهو الذي يحقق حالا من اليقين والاطمئنان لا تأتي من طريق الإشباع المادي بل من طريق الفؤاد وصفاء السرائر»[18].

2. مفهوم التصوف السني:

والمراد بهذا النوع من التصوف هو ما كان قرين الزهد والتقلل من متاع الدنيا وملذاتها، وهو امتداد لما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، وإن كان هذا الزهد لم يعرف باسم التصوف إلا في أواخر القرن الثاني الهجري فإن أصله ومعناه وحقيقته كان معروفاً في زمن رسول الله ﷺ، وقد حث على ذلك القرآن الكريم في كثير من آيات الكتاب الحكيم، قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ** ﴾[19]. وقال تعالى: ﴿ **وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ﴾[20].

وكذلك كثر ذكر الزهد في كتب الحديث والسنن وكثرت أبوابه، والناظر فيها يجدها قد اشتملت على أبواب كثيرة مثل باب الزهد في الدنيا، باب فضل الجوع، باب القناعة والعفاف، باب فضل البكاء من خشية الله...والناظر في هذه الكتب يجد كثيراً من الأحاديث والآثار الواردة في الزهد، ومن ذلك قوله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بما يرجع»، وقوله ﷺ:«كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل».

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك».

3. مصادر التصوف:

إن مصدر التصوف الإسلامي هو الكتاب والسنة، كما أكدت ذلك عدة دراسات في الموضوع، إلا أنه تأثر كباقي مناحي الحياة الفكرية والحضارية

الإسلامية بعدة روافد ومؤثرات، وكان من نتائج ذلك ظهور عدة مدارس واتجاهات صوفية بعضها تأثر بمقولات كلامية وفلسفية، فظهر ما يشبه التعارض بين تصوف سني أكثر التزاما بالسنة، وتصوف فلسفي بلغ أحيانا درجة التطرف.

وعليه فمصادر التصوف السني هي ثلاثة نوردها كما يلي:

أ . القرآن الكريم:

القرآن الكريم هو الأساس الذي يستمد منه كل علم شرعي شرعيته، وعليه يعتمد أهل الحقفي التمسك بحقهم، كما أن القرآن الكريم هو الكتاب الخاتم وهو الكامل الشامل لقوله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا ﴾[21].

لذلك لم يهمل القرآن الدعوة إلى الزهد والتقلل من متاع الحياة الدنيا التي يضرب لها مثلاً بقوله: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [22].

وقال أيضاً: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [23].

ب . السنة النبوية:

المصدر الثاني من مصادر التصوف السني هو السنة النبوية، لذا فإن الناظر في كتب السنن وفي شمائل النبي ﷺ يجدها مليئة بالدعوة إلى الزهد، وإليك بعض المختارات من بستان النبوة الذي يعج ويحفل بوصف الدنيا ودنوها لطالبيها وأنها مزرعة الآخرة ولا تغني عن الآخرة شيئا، قال ﷺ: «إن الدنيا حلوة خضرة، وان الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون؟ فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء».

ولقد كان محمد ﷺ أزهد الناس في الدنيا، كيف لا وقد كانت تأتيه مرغمة فيردها إلى من هو دونه وينفقها، وقد قال: «لو كان لي مثل أحد ذهباً لسرني أن لا تمر علي ثلاث ليال وعندي منه شيء أرصده لدين».

ويقول النعمان بن بشير رضي الله عنه يصف حال النبي ﷺ كما ذكر ذلك عنه، قال: «لقد رأيت نبيكم ﷺ، وما يجد من الدقل (رديء التمر) ما يملأ به بطنه».

وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ نام على حصير فأثّر في جنبه، فقال له أصحابه رضى الله عنهم: يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاءً، فقال: ما لي وللدنيا؟ ما أنا في الدنيا إلاّكراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها».

ج . آثار الصحابة والتابعين:

عند الرجوع إلى أحوال الصحابة رضي الله عنهم والتابعين نرى فيهم التأسي برسول الله ﷺ بترك متاع الدنيا وزخرفها، فهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه حين وليّ الخلافة دفع كل ما له في بيت مال المسلمين، فلما سئل عن ذلك قال: كنت أتاجر فيه فلما وليتموني شغلتوني عن التجارة، وحين وليّ الخلافة خرج إلى السوق ليعمل فقال له الصحابة رضي الله عنهم: «نفرض لك ففرضوا له قوت رجل

من المهاجرين ليس بأفضلهم، فقال أبو بكر رضي الله عنه قد رضيت .

وكان عمر رضي الله عنه على درب رسول الله ﷺ وصاحبه أبي بكر رضي الله عنه، فحين فتحت عليه الدنيا كلمته عائشة وحفصة رضي الله عنهما في تغيير جبته التي كانت فيها اثنتا عشرة رقعة، فأبا وقال إن له أسوة بصاحبيه فلا يجمع بين أُدمين إلا الملح والزيت، ولا أكل لحماً إلا في كل شهر ينقضي ما انقضى من القوم، ولما قدم له ماء قد شيب بعسل فقال: إنه لطيِّب وقال: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [24]، فأخاف أن تكون حسناتنا عجلت لنا فلم يشربه .

ورضي الله عن أبي الدرداء إذ يقول: والذي نفس أبي الدرداء بيده ما أحب أن لي اليوم حانوتاً على باب المسجد، لا يخطئني فيه صلاة، أربح فيه كل يوم أربعين ديناراً وأتصدق بها كلها في سبيل الله، قيل له: يا أبا الدرداء وما تكره في ذلك؟ قال: شدة الحساب والمتتبع لقصص الصحابة في الحلية، وكنز العمال، والبداية والنهاية، وكتب السنن يجد الشيء الكثير من ذلك وكذلك قصص التابعين.

4 . نشأة التصوف بالمغرب:

لابد أن تنشأ جماعة متميزة من الزهاد لها طريقتها في العبادة كما يصفها ابن خلدون بقوله: «لمتزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة، وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف، فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني و ماب عده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوف»[25]، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن أصحاب التصوف اعتكفوا منذ البدء على العبادة والانقطاع إلى الله عز وجل والابتعاد عن ملذات الدنيا وزينتها والإقبال على الآخرة والعمل لها، وهذا ما نص عليه القرآن الكريم وسيرة الرسول ﷺ والصحابة، فقد كانوا من أوائل الزهاد والمتصوفة يحثون الناس للدعوة إلى الكتاب والسنة، يشاركونهم حياتهم ويقومون بدور فعال في توجيه المجتمع وإصلاحه ويحثون على الجد والعمل[26].

لقد ظهرت بدايات التصوف في المغرب قبل الانحراف من خلال العبادة والانقطاع والإقبال إلى الله سبحانه وتعالى والبكاء عند قراءة القرآن والاستماع إلى المواعظ، والتي تعد من أبرز سمات الزهاد الأوائل، وعلى سبيل المثال لا الحصر فقد أشارت المصادر التاريخية إلى البعض من هؤلاء الزهاد والعباد في بلاد المغرب[27]،فأبو القاسم الجنيد يعتبر من كبار متصوفة القرن الثالث الهجري (توفي سنة 277هـ)، ومن الأعلام الذين أغنوا الفكر والثقافة الصوفية السنية. سئل الجنيد عن التصوف فقال: «الخروج عن كل خلق رديء، والدخول في كل خلق سني»[28]، وقال أيضا: «الطرق كلها مسدودة على الخلق، إلا على من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام»[29].

ويمثل العالم والفقيه والصوفي أبو الحسن الأشعري (توفي سنة 330هـ/942م) نقطة فصلفي تاريخ التصوف الإسلامي عامة والتصوف السني بصفة خاصة، ذلك أن تحوله عن مذهب المعتزلة وإعلانه الخروج عنهم أوجد في العالم الإسلامي مذهبا جديدا هو المذهب الأشعري، استخدم أدلة خصومه لينقض بها آراءهم وحججهم، مذهب يقوم على القرآن والسنة، ولا يمهل المعطيات العقلية والفلسفية للانتصار لمذهب أهل السنة والجماعة، فهو بذلك مذهب وسط يأخذ من منابع الإسلام الصافية، ويعتمد المنهج والأسلوب الجدالي المعتزلي والفلسفي.

من أقواله: «قولنا الذي نقول به، وعقيدتنا التي ندين بها، التمسك بكتاب ربنا عز وجل وسنة نبينا عليه السلام، وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون»[30].

ونختم الحديث عن متصوفة أهل السنة الذين كان لهم أبعد الأثر في تبلور التصوف بالمغرب، بذكر شخصية كان لها أثرها البعيد وحتى إلى وقت متأخر، وأعني به حجة الإسلام الإمام الغزالي، الذي عاش في القرن الخامس الهجري، في فترة تميزت باضطراب الأحوال والأفكار والقيم في العالم الإسلامي، وتأتي أهمية الغزالي في كونه أحد القلائل الذين وقفوا بشجاعة في وجه موجة الانحراف والتطرف والغلو، بعد أن استوعب مقومات ثقافة عصره، فكان رفضه واعتراضه من داخل هذه الثقافة، وفي نفس الوقت يطرح البديل السني البعيد عن الجمود والتقوقع، بديل ينطلق من فهم عميق لمختلف التيارات الفكرية المتفاعلة إلى رسم حدود التعامل والاستفادة منها، دون تهافت أو استلاب.

جاء في رسالة الغزالي :«إن النصح يؤخذ من معدن النبوة، فإن كان قد بلغك منه شيء، فأي حاجة لك في نصيحتي»[31]. وذكر الغزالي عن المتصوفة المغاربة يكون مقرونا بذكر كتاب «الأحياء» الذي يعتبر تدوينا علميا ومعرفيا للتصوف الإسلامي السني، ومما جاء في المتصوفة عند الغزالي: «إني علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به»[32].

دور علماء المغرب في محاربة البدع والعقائد المنحرفة:

1 . المالكية في صراعهم ضد البدع:

يبدو أن اهتمام بلاد المغرب بعلوم الحديث والفقه كان أكثر من الاهتمام بالعلوم الأخرى، وذلك لحاجة المغرب خلال تلك المدة إلى مباحث فقهية دينية تنظم شؤون البلاد اجتماعياً، فوجدوا ما يحتاجه المسلم منذ صغره وما يوجهه في الشؤون المدنية والقضائية وغيرها[33].

وقد تأثر المغرب العربي شأنه شأن أقاليما لدولة العربية الإسلامية الأخرى بما كان يسود الساحة من المذاهب الفقهية، ويبدو تأثير الحجاز بمدنه مكة والمدينة والعراق وما فيهما من مقدسات إسلامية، فضلاً عن علمائها المشهورين كان محط الراحلين وغاية أهل العلم من أهل المغرب الذين شرعوا بحمل علوم إمام دار الهجرة مالك بن أن سو غيره من المشاهير[34]، ومن هنا كان الحجاز والعراق مركز استقطاب لراحلين من أهلا لمغرب[35]، ولذلك نجد بدايات ظهور المذاهب الفقهية في بلاد المغرب ومدنه وجدت مع خط سير الراحلين في طلب العلم، فالرحلات العلمية كانت تنتهي باتجاهين: الحجاز عبر مصر التي شكت للراحلين إضافات واضحة في ما كانوا يبعثونه من العلم والاستزادة ولقاء المشايخ والمشاهير، وكانت مدن الحجاز هي النهاية حيث الإمام مالك بن أنس وتلامذته والشيوخ الآخرون[36]، وبفضل الرحلات إلى الحجاز والعراق دخلت أصول للمذهبين المالكي والحنفي.

كما نلاحظ تحصن أهل المغرب ضد البدع والأهواء بالمذهب المالكي وذلك لتمسكهم بالحديث النبوي وسنة الرسول (ص)، فقد ورد في كتاب «ترتيب المدارك وتقريب المسالك»: «وأما إفريقية (أيتونس) وما ورائها (أي الجزائرو المغرب والأندلس) فقد كان الغالب عليها في القديم مذهب الكوفيين إلى أن دخل علي بن زياد (ت183 هـ/799 م) وغيره بمذهب مالك»[37]، ولابن زياد يعود الفضل في نشر العلم في بلاد المغرب ومدنه وفي تونس

خاصة، وعنه حمل الكثير من التلاميذ وتفقهوا به[38]، وبقي هذاا لمذهب ينتشر إلى أن جاء سحنون بن سعيد(240هـ/854 م) وبجهوده وجهود تلامذته من بعده وما خلفه من مؤلفات انتشر مذهب مالك بن أنس في المغرب.

كما كانت مدرسة مالك الفقهية بالمغرب من أشهرا لمدارس في الدولة العربية الإسلامية وأشدها تمسكا بالآراء الفقهية وبالنصوص الشرعية من القرآن الكريم والسنة، وأعمال الرأي والتمرد السياسي وظهور الفرقة والبدع وثورات الخوارج والشيعة[39]، وهذه كلها أمور طبيعية، لأنهم نصبوا أنفسهم مدافعين عن الإسلام ومحافظين لأصوله ومجاهدين بأنفسهم ومزكينها من كل ماتنزه عنه الرسول ﷺ وصحابته الكرام، تزهدوا في الدنيا وملاذها حتى يكونوا قدوة للناس في كل أعمالهم.

وممن أشار إليهم أبو العرب عبد الله بن فروخ (ت176 هـ/792 م) فقيه القيروان ومن أوائل الراحلين إلى طلب العلم إلى الإمام مالك، فكان الإمام يجله ويعرف فضله وكان يبغض أهل البدع[40]. ويمكن أن نشير إلى أسباب مقاومة علماء السنة المغاربة لكل البدع كما ساقها ابراهيم التهامي بقوله[41]:

. أولها أن أهل المغرب كانوا يقاومون كل فكر منحرف عن منهج أهل السنة مهما كان انحرافه، لا يفرق ونبين أحد منهم.

. ثانيهما هو محاولة فرض آرائهم هذه على الناس وحملهم عليها بالقوة، ولو اكتفوا بضلالهم وانحرافهم في أنفسهم لكان الأمر هينا، ولكن عندما يفرض على الناس ويصبح هو المذهب الرسمي ومذهب الحق وما دونه هو الباطل.

2 . مقاومة علماء المغرب للتصوف:

يشير أحمد أمين بقوله:«كان العداء بين الفقهاء والمتصوفة، إذ غالى الفقهاء في أعمال الظاهر وغالى المتصوفة في أعمال الباطن، فالفقهاء ينظرون إلى المتصوفة نظرة شذوذ وانحراف عن دين الحق، وكذلك نظر المتصوفة إلى الفقهاء»[42]، فعلماء المغرب كانوا يترصدون لأهل البدع من الأدعياء والمريدين والملبسين، ولكل من رسم له طريقاً للانحراف من العبادة، ومع ظهور هذا الاتجاه إلى الوجود نجد أن غيرة علماء المغرب للإسلام وبغضهم الشديد لكل من يحاول أن ينحرف بالمفاهيم الإسلامية السمحاء، فضلاً عن أن مقاومتهم لم تكن موجهة نحوا لزهد والانقطاع للعبادة، وإنما كانت نحو الانحرافات والبدع رافقت دخول هذا الاتجاه، واختلطت وامتزجت بالزهد، فتلوثت وكدرت صفاءه، فجاءت مقاومة هؤلاء العلماء لتزيل هذا التلوث والتكدر الذي أصاب الزهد لتعيد له نقاءه وصفاءه[43].

لقد ظهر عدد من علماء المغرب في هذه المرحلة لدحض كل الاتجاهات والعقائد المنحرفة والمنافية لتعاليم القرآن والسنة النبوية، ومنهم يحي بن عمر بن يوسف الكناني الأندلسي المكنى بأبي زكريا(ت289 هـ/901م) أصله من الأندلس، سكنا لقيروان وسوسة، يقول القاضي عياض عنه: «أنه كان مقاوماً لأهل البدع»، وحكي أنه مر على محلة قوم يكبرون أيام العشر فنهاهم»[44]، وقال: هي بدعة، له الكثير من المؤلفات منها كتاب» الرد على الشكوكية»، وكتاب» الرد على المرجئة».

كما ورد في مقاومة علماء المغرب عندما اتخذ الزهاد يوما في أيام الأسبوع هو السبت يلتقون فيه ويعقدون حلقات الذكر وقراءة القرآن وإنشاد أشعار الزهد والرقائق في أحد المساجد المعروف بمسجد السبت، وكان لمحمد بن يوسف بن معدان بن سليمان الأصبهاني (ت284 هـ/897م) أشعار جيدة في الزهد والرقائق، فإذا ما استمعها المتعبدون في المسجد وانشرحت صدورهم ونفوسهم إليها، فينفض اللقاء

وهم محزونون نادمون، ويرى الفقيه يحيى بن عمر أن اجتماع الناس بمسجد السبت بدعة كبيرة كونه ناصرا للسنة منكرا للبدع.

وهكذا لم تقف الاتجاهات الصوفية المنافية للقرآن الكريم والسنة عند حد، بل تطور تطورا خطيرا جعلتهم يرفعون أصواتهم في الذكر وإنشاد الأشعار والرقائق حتى اقترنت بالرقص والسماع، وما يحدث بعد ذلك من الوجد والإغماء فضلاً عن الانبساط في الأكل و الشراب، حتى أصبحت هذه الأمور دأب الصوفية وسنة متبعة، مما جعلت العلماء يجتمعون على الإنكار عليهم ورميهم بالبدعة الضلالية.

. دور التصوف في تدعيم العلاقات الروحية بين المغرب وبلدان إفريقيا جنوب الصحراء:

1 . العلاقة بين التصوف وانتشار الإسلام في إفريقيا:

بغض النظر عن الجدل الحاد الذي يثار بشأن إذا كان لبعض الحركات الصوفية في إفريقيا دور بارز في تمكين الاستعمار من التغلغل في المجتمعات، فإن التصوف الإسلام ييعد بمختلف مدارسه من أقدم التيارات الدينية المتأصلة في المجتمعات الإفريقية التي يعتبر التصوف أحد أهم سماته الثقافية والفكرية، وقد انتشرت الثقافة الصوفية في المجتمعات الإفريقية بشكل لافت، سواء من حيث مظاهرها أو على مستوى النطاق الذي تتفاعل فيه، أو بالنسبة إلى عدد الجماعات الدينية التي تتمسك بها[45].

وتعد الحركة الصوفية مظهرا من مظاهر الإسلام الممارس الذي يتفشى في المجتمعات الإفريقية والآسيوية[46]، وعلى الرغم من تنامي هذه الحركات وأهميتها في التعبئة الشعبية التي لا يختلف في شأنها اثنان، فإن وضع دراسة دقيقة وجادة لها واجهتها عدة صعوبات ومشكلات تحكمها الخلفيات الإيديولوجية والمصلحية والمذهبية سواء بالنسبة إلى الباحثين أو المفكرين، وكذا بالنسبة إلى المنظمات التي حاولت مقاربة هذه الحركة، وهذا طبعا ما سيثير عدة إشكالات وصعوبات عند دراسة دور التصوف في انتشار الإسلام، أو عند تحديد إطار جغرافي واجتماعي لتأثيرات ثقافته، فمنذ بداية القرن الماضي وموضوع التصوف كحركة دينية سوسيو–ثقافية في إفريقيا يحظى باهتمام المفكرين والفقهاء الشرعيين ورجال السياسة، ويشكل محورا أساسيا لعدة لقاءات ومؤتمرات دولية (ندوة عين ماضي 1984، وندوة فاس 1985، ملتقى طرابلس 1995، ملتقى باماكو وملتقى الأغواط 2006...)، غير أن مجمل المحاولات التي تمت في هذا الصدد من أجل إعداد دراسة علمية ودقيقة للحركة، انتهت إلى إخفاق نسبي جراء اعتمادها على تحليلات عامة فضفاضة ومتباينة أحيانا[47].

وغني عن البيان أن «الصوفية في كل عصرهم حملت راية الإسلام في كل فن، في التوحيد والفقه والتفسير وعلوم الحديث واللغة وعلم الأخلاق، علم تهذيب النفوس، التهذيب الروحي الذي هو لب الإسلام»[48]، ومن الثابت لدى المؤرخين قديما وحديثا أن «السادة الصوفية هم الذين أدخلوا الإسلام إلى هذه البقاع (الإفريقية) منذ عهد قديم جدا، ولذلك بادر إلى التمسك به والسير على دربه أئمة البلاد، ويتوارثونه خلفا عن سلف»[49].

وضمن السياق نفسه تأكد أن «انتشار الإسلام في السنغال، ومالي، والنيجر، وغينيا، وغانا، ونيجيريا، والتشاد إنما يرجع الشطر الأكبر من الفضل فيه إلى الطرق الصوفية، فكانت الزوايا والرباطات التي أسسها شيوخ هذه الطرق الصوفية بؤر لنشر الدعوة الإسلامية بين الشعوب الوثنية في القارة الإفريقية»[50].

وخلاصة القول إن انتشار الإسلام وثقافته في

إفريقيا قد بدأ في الأوساط الصوفية منذ الفتوحات التي قادها الشيخ الحاج عمر الفوتي، ولا زالت جهود العلماء (الصوفية) مستمرة لنشر تعاليم الدين الحق كجهود عائلة «نياس» في السنغال التي تخطو خطى الوالد المربي شيخ الإسلام بحق «سيدي إبراهيم نياس» الذي جاب العالم غربا وشرقا طالبا العلم وناشرا له، وترك مؤلفات عديدة ومريدين يعدون بالملايين، وغيرها من العائلات الكريمة الأخرى[51] في بقية الأقطار الإفريقية الأخرى.

2. الزاوية مركز للتربية الصوفية السنية:

لقد غلب نشر الإسلام وتجديد معالمه على الحركة الدينية بالمغرب بسبب ظروف هذه البلاد الخاصة، باعتبارها بلد التخوم، فتحمل أبناؤها من علماء وفقهاء وصلحاء مهمة نشر الإسلام وتبليغ رسالته، وهو ما يمكن ملاحظته من خلال جرد تاريخي سريع لتاريخ هذه البلاد، بدءا بالفاتحين ومرورا بالأدارسة والمرابطين وصولا إلى عهد السعديين والعلويين، فلا غرو أن تمتزج التربية الصوفية بهذه الخاصية وتتميز بها، ذلك أن العلم بالشريعة كان الأسبق على تفهم مقاصد علم الحقيقة، باعتباره التربة الخصبة التي يجب أن تبذر فيها بذور الإيمان والطهر الروحي.

يقول الفقيه والشيخ الصوفي أبو عبد الله محمد الصالح شيخ الزاوية الشرقاوية على عهد السلطان مولاي إسماعيل العلوي:« وعليك بالعلم، فالعلم زينة الفقر وعماده وفراشه وغطاؤه ووساده، وفقر بلا علم فضيحة ومكر وخديعة، وهو ظلمة بلا سراج»[52].

كما عرف هذا الشيخ التصوف بقوله: «أعلم أن التصوف علم شريف لمن أكرمه الله بمعرفته، وحال منيف لمن تفضل الله عليه بكمال أوصافه وحسن سيرته، وليس هو كما يزعمون بلبس المرقعات والمشي حافيا في الطرقات، وتعرية الرأس وانزعاج النفس، وتقشف الثياب وتغير الحالات والشطح والرقص والتصفيق والتغاشي في الطرقات»[53].

3. دور الطريقة التجانية في نشر الإسلام كنموذج:

حاول شيوخ الطريقة التجانية منذ البداية واستمروا على الدوام، أن يعملوا من أجل تعريف الناس بعقيدة الإسلام وقيمه الأخلاقية، ونشر ثقافة الإسلام، التي هي ثقافة التسامح والحوار والسلام، بين المواطنين النيجريين لجذب أكبر عدد منهم لاتجاه التصوف الإسلامي وجعلهم من أتباع ومريدي الطريقة التجانية، خاصة وأن الفكر التجاني كان ولا يزال يجد دائما تجاوبا من كثير من النيجريين الذين تستميلهم الأفكار الروحية وتستهويهم حياة التقشف والتقوى والورع[54]، ولذا كانت الطريقة التجانية في النيجر من أقوى الحركات الصوفية التي استطاعت أن تسحر العقل النيجري دون أن تثير خلافات حول الطقوس والشعائر والفرائض طالما أنها لا تدعو إلا إلى حياة روحية لا يكاد يختلف فيها التجاني عن القادري، حتى تمكنت هذه الحركة الصوفية في النهاية من أن تكسب أرضا شعبية ضمت عامة الناس وخاصتهم، وأصبح التجاني محترما عند جميع المسلمين وعند أتباع الديانات الأخرى على السواء، يتنافس الجميع في الالتفاف حولهم والاستماع إليهم[55].

ولقد سبق أن ترددت على النيجر المعاصر وفود متتالية من علماء الطريقة التجانية وتركت زياراتهم آثارا روحية عميقة نجحت في تأسيس مدرسة صوفية انخرط في سلكها أتباع ومريدون كثيرون، فكان من أبرز مشايخ الطريقة التجانية الذين طابت لهم الحياة في النيجر ودعموا الفكر التجاني فيه شيخ الإسلام «الحاج إبراهيم نياس الكولخي» (1900-1975م) مؤلف كتاب «كاشف الإلباس عن فيضة الختم أبي العباس» باللغة العربية في النصف الأول من

القرن الماضي، وهو يعد من أشمل الكتب التي تعرض دراسات وافية لمختلف المذاهب الصوفية وشتى طرقها وعامة أحوالها، مع التركيز بطبيعة الحال على تجربة الشيخ أحمد التجاني (1717-1815م)[56].

ويعد فضيلة الشيخ الحاج إبراهيم نياس الكولخي كما سبق الذكر من العوامل الرئيسية التي أذاعت الأفكار الصوفية والطريقة التجانية بين عامة الناس من النيجريين، وخاصة الفقهاء منهم، الذين سرعان ما أدركوا ذلك التقارب الشديد بين طرق متصوفة الطريقة التجانية في المجاهدة والطرق الصوفية الأخرى في قهر الشهوات، وترويض النفس والضبط الروحي وإعداد الروح للتأمل الذي لا تعكره نزوة ولا تصرفه عن الحقيقة رغبة.

هذا وقد تمكنت الطريقة التجانية من خلال عدد من الآليات أن تنشر الدعوة الإسلامية، وأن تجعلها مقبولة لدى الجميع بدون غزوة ولا سلاح، فهي التي حملت نورها إلى المدن والقرى، وشيوخ التجانية هم الذين صمدوا في وجه التيارات الإلحادية والانحلالية، وهم الذين وقفوا حصنا منيعا شامخا ضد الاستعمار والغزو الثقافي.

4 . الطريقة التيجانية كآلية دينية لدعم العلاقات المغربية الإفريقية:

لقد كانت المدينة المغربية العتيقة فاس المكان الذي اختاره شيخ الطريقة التيجانية «سيدي أحمد التيجاني» لكي يقيم به زاويته الصوفية التي أصبحت إحدى الزوايا الأكثر شهرة واستقطابا في تاريخ إفريقيا ومنطقة المغرب العربي، هذا المتصوف الكبير الذي ازداد بقرية «عين ماضي» منحدرا من قبيلة أمازيغية تدعى «تيجان» بمنطقة تلمسان بالجزائر، الذي استقر بفاس سنة 1789 ميلادية وأسس بها سنة 1801 الزاوية التيجانية، ثم أقام بهذه المدينة إلى حين وفاته، هذه الزاوية التي توجد في قلب حي استراتيجي تتجمع فيه أغلب الأنشطة التجارية على مقربة من جامع القرويين وغير بعيد من ضريح مولاي إدريس[57].

لقد انتقلت الطريقة التيجانية إلى دول إفريقيا جنوب الصحراء عبر بعض المريدين الشناقطة، خاصة محمد الحافظ العلوي الشنقيطي، إذ كانت العادة الجارية في طلب العلم لدى أهل السنغال وغيرهم من أهالي إفريقيا الانتقال إلى محاضر العلم الشنقيطية، ثم بعد ذلك يدخلون للمراكز العلمية المغربية، وعبر هذه القناة عرفت التيجانية طريقها الأول جنوب نهر السنغال، ومن تم عرفت الانتشار داخل القارة الإفريقية، لدرجة أصبحت تمثل القوة الإسلامية الأولى في حوض السنغال والنيجر، ودخل في الطريقة التيجانية عدد كبير من سكان منطقة «فوتاتورو» و»فاتاجالون» في الغرب الإفريقي وقبائل المنطقة الذين صاروا من أشد أنصار الإسلام، إلى جانب عدد هائل من القبائل والجهات التي دخلت الطريقة التيجانية، والأمر الذي أدرك من خلاله المغاربة مدى نجاعة تأثير هذه الحركة الصوفية وتجدرها في نفوس الأفارقة، وتمكنها من تغطية الفترة الزمنية التي سجل خلالها غياب السلطة المغربية الخارجية والممارسات الدبلوماسية نحو إفريقيا، إذ ظلت التيجانية كقناة صامدة من أجل استمرار التواصل المغربي الإفريقي، وبقيت إلى الآن مدينة فاس وضريح «سيدي أحمد التيجاني» محجا للوفود الآتية من غرب وجنوب إفريقيا[58].

كما تتوفر الطريقة التيجانية على نخبة من الأتباع والمريدين، إذ تحكي عدة مؤلفات عن انتماء بعض أتباع الطبقة الأرستقراطية والعلماء المشهورين وذوي النفوذ والسلطان على هذه الطريقة الصوفية، إضافة إلى أن بعض السلاطين العلويين كالسلطان مولاي سليمان ومولاي عبد الحفيظ والملك محمد الخامس كانوا من الأتباع المتشددين للطريقة التيجانية ومن

أكبر المدعمين لها.

أما فيما يخص الدور الدبلوماسي الذي تقوم به الزاوية التيجانية في تكييف علاقة إفريقيا بالمنطقة المغاربية خاصة مع المغرب وبدرجة ثانية الجزائر، يمكن القول بأن هذه الزاوية تلعب دورا مهما ومحددا لا يستهان به في توجيه هذه العلاقات الإقليمية.

خاتمة:

إن التصوف يعتبر من مقومات تاريخ المغرب الروحي والديني والثقافي والاجتماعي والسياسي بل والاقتصادي، لم تقتصر آثاره على المدن، بل أدمجت البوادي في الحياة الثقافية، ولم يقتصر على جماهير العامة بل صار السند العلمي والسند في الإذن الصوفي يكادان يقترنان في تراجم معاجم الأعلام، وهو من معطيات الإشعاع المغربي في اتجاه الشرق ولاسيما صعيد مصروفي اتجاه الجنوب، بل وفي اتجاه أوروبا، وعلى الصعيد الداخلي.فالحركة الصوفية بالمغرب ليست وليدة لمجتمع «مأزوم» ولا نتاجا لأزمات اقتصادية وسياسية، ولم تنبني على ردود أفعال تجاه تجاوزات السلطة أو تشدد الفقهاء، بل هي حركة أصيلة في المجتمع المسلم، وتطور تلقائي للمنحى الزهدي الذي عرفه المغرب منذ الفتح الإسلامي، وإنما عرفت تطورات في صيرورتها التاريخية كانت استجابة لتغيرات اقتصادية وثقافية وسياسية أفرزت عدة إشكاليات، تعاملت معها الحركة الصوفية بانفتاح، وحاولت تقديم أجوبة وحلول لها من خلال تكيف «داخلي» تمثل في تطوير «الذات الصوفية» لمضاعفة الوظائف والقدرات خصوصا بإفراز التنظيمات الصوفية منذ مطلع القرن السابع الهجري.

عموما فرأي بعض الباحثين في التصوف الذين يعتبرونه «المحرك الحقيقي للمجتمع الإسلامي» فيه قدر كبير من الصحة، إذ منذ انطلاقها لم تعرف الحركة الصوفية تقهقرا ولا تراجعا، بل تميزت بمجهودات كبيرة لرجالاتها، وتكيفت مع مختلف الظروف لكنها لم تتوقف، وحتى في القرن الثامن الهجري الذي يصر عدد من الباحثين على تراجع الحركة الصوفية فيه بالنظر إلى غياب الأسماء الكبيرة لشيوخ الصوفية فإنه عرف إحدى أنشط مراحل التصوف بالمغرب من خلال مساهمات كبار العلماء في التأليف الصوفي، وأنه كان فترة حاسمة في «مغربة» التصوف على المستوى العلمي التنظيري، وأدى في نهايته إلى إقرار المشرب الشاذلي، هذه الدينامية لرجالات التصوف مكنتهم من كسب المواقع، وحيازة السبق في التأثير على أوسع شرائح المجتمع وتوجيه ذهنياته، وبالتالي المساهمة في التحولات الثقافية والاقتصادية والسياسية التي عرفها تاريخ المغرب.

من هنا تمكنت الزوايا والطرق الصوفية من خلال توظيفها للعامل الديني الإسلامي من القيام بمد قنوات الحوار والتواصل وصيانة نسيج العلاقات الحضارية والسياسية بين المغرب وإفريقيا، إذ وجد هذا الأسلوب الديني قبولا من طرف الأفارقة، ساعد على تغلغل طقوس الزوايا المغربية وتعاليمها الصوفية في الجزء الجنوبي والغربي لإفريقيا بشكل خاص، مما جعلها تلعب دورا تاريخيا في مواجهة حركات التبشير المسيحية التي غمرت القارة الإفريقية مع انطلاق الحركات الاستعمارية.

الهوامش:

– ظريف (محمد)، «**مؤسسة الزوايا بالمغرب**»، منشورات المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، 1992، ص. 24.

[2]– بن عبد الله (عبد العزيز)، «**معلمة التصوف الإسلامي**»، الجزء الأول، مطبعة المعارف الجديدة، الطبعة الأولى، الرباط، 2001، ص. 221.

[3]– القشيري، (أبوالقاسم)،»**الرسالةالقشيرية**»، تحقيق الإمام الدكتور عبد الحليم محمود، الدكتور محمود بن الشريف، دار المعارف، القاهرة، ص. 215 . 217.

[4]– ابن خلدون (عبد الرحمان)، «**المقدمة**»، المجلد الثاني، المكتبة العصرية، دار البيان، بيروت، ص. 329.

[5]– بن عبد الله (عبد العزيز)، «**معطيات الحضارة المغربية**»، الرباط، 1963، ص. 126.

[6]– بن عبد الله (مصطفى)، «**كشف الظنون عن أساليب الكنى والفنون**»، استنبول، الجزء 1، 1941، ص. 414.

[7]– دانق:(بالفارسية دانخ)يعني عموما «سدساً»، وهو وحدة وزن ونقد تساوي واحد دينار.

[8]– السهروردي (شهاب الدين أبي حفص عمر بن محمد بن عبدالله البغدادي)، «**عوارف المعارف**»، ضبطه وصححه محمد عبدالعزيز الخالدي، الطبعة الأولى، بيروت، 1999، ص. 43.

[9]– الأصبهاني(أبو نعيم)،»**حلية الأولياء بالصوفي الأصفياء**»، الجزء 2، بيروت، ص. 134.

[10]– أبو هاشم الكوفي (ت 150هـ) أول من دعاب الصوفي، ولم يتسم أحد قبله بهذا الاسم.

[11]– السهروردي (شهاب الدين أبي حفص عمر بن محمد بن عبدالله البغدادي)، المرجع السابق، ص. 43.

[12]– ابن سعد (محمد)،»**الطبقات الكبرى**»، الجزء 4، بيروت، ص. 80.

[13]–جماعي، «**المعجم الوسيط**»، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 1972، ص. 554.

[14]–الطنطاوي (محمود السعيد)، «**عشرات على طريق التصوف الرشيد**»، القاهرة، 1975، ص.5.

[15]–السحمراني (أسعد)، «**التصوف: منشؤه ومصطلحاته**»، دار النفائس، بيروت، 2000، ص. 15.

[16]– الزاوي (الطاهر)، «**ترتيب القاموس المحيط**»، دار عالم الكتب، الرياض، 1996، ص. 831.

[17]– التجاني (الشيخ أحمد)، «**التصوف الإسلامي: مبادئه ومقاصده وغاياته**»، مركز الدراسات الإسلامية، أبيدجان، 1991، ص. 20.

[18]–السحمراني (أسعد)، المرجع السابق، ص. 19 . 20.

[19]– سورة **فاطر** من القرآن الكريم، الآية 5.

[20]– سورة **العنكبوت** من القرآن الكريم، الآية 65.

[21]– سورة **المائدة** من القرآن الكريم، الآية 3.

[22]– سورة **يونس** من القرآن الكريم، الآية 24.

[23]– سورة **الكهف** من القرآن الكريم، الآية 45 . 46.

[24]– سورة **الأحقاف** من القرآن الكريم، الآية 20.

[25]– السلمي(ابن عبدالرحمن)، «**المقدمة في التصوف وحقيقته**»، تحقيق وتعليق حسين أمين، منشورات اتحادا لمؤرخين العرب، بغداد، 1984، ص. 64 . 65.

[26]– ابنعامر (توفيق)، «**الصوفية والعقيدة الجبرية**»، مجلة دراسات فلسفية وأدبية، العدد 5 . 6، الدار البيضاء، 1980،ص. 7.

[27]– سيد أحمد (محمد الأمين)، «**السلطة والفقهاء في إمارة الترارزة**»، مطبعة المنار، 2003، ص. 204.

[28]– بن الطيب (محمد)، «**وحدة الوجود في التصوف الإسلامي في ضوء وحدة التصوف وتاريخيته**»، دار الطليعة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، بيروت، 2008، ص.46.

[29]– نفسه، ص. 56.

[30]– سرور (طه عبد الباقي)، «**من أعلام التصوف الإسلامي**»، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، مصر، ص. 143.

[31]– الغزالي (أبو حامد)، «**إحياء علوم الدين**»، الجزء الأول، دار الفكر، الطبعة الأولى، 2003، ص 21.

[32]– نفسه، ص. 76.

[33]– عياض بن موسى (أبي الفضل)، «**ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**»، الجزء الأول، ص. 330 . 331.

[34]– أبو العرب (محمد بن أحمد بن تميم التميمي)، «**طبقات علماء إفريقيا وتونس**»، دار الكتاب اللبناني، بيروت،ص. 235.

[35]– نفسه،ص. 137.

[36]– أبو العرب (محمد بن أحمد بن تميم التميمي)، المرجع السابق، ص. 276.

[37]– عياض بن موسى (أبي الفضل)، المرجع السابق، ص. 157.

[38]– أبو العرب (محمد بن أحمد بن تميم التميمي)، المرجع السابق، ص. 188.

[39]– المجذوب (عبدالعزيز)،»**الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية**»، بيروت، 2008، ص. 52.

[40]– التهامي (ابراهيم)،»**جهود علماءا لمغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة: دراسة في الصراع العقدي في المغرب العربي من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الخامس**»، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، بيروت، 2005، ص. 407.

[41]– نفسه، ص. 422.

[42]– أمين (أحمد)،»**ظهر الإسلام**»،الجزء 2، القاهرة، 1962، ص. 297.

[43]– المقدسي(محمد بن أحمد بن أبي البناء)، «**أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**»، لندن، 1906، ص. 236.

[44]– عياض بن موسى (أبي الفضل)، م. س، ص. 326.

[45]– سيلا (عبد القادر)، «**المسلمون في السنغال: معالم الحاضر وآفاق المستقبل**»، سلسلة كتاب الأمة، الدوحة، 1986، ص. 63.

[46]– بازينة (عبد الله سالم محمد)، «**انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء**»، منشورات جامعة 7 أكتوبر، الطبعة الأولى، مصراته، 2010، ص. 204.

[47]– بدوي (عبد الرحمن)، «**تاريخ التصوف الإسلامي**»، وكالة المطبوعات، الكويت، 1975، ص. 25.

[48]– التجاني (محمد الحافظ)، «**علماء تزكية النفس من أعلم الناس بالكتاب والسنة**»، منشورات الزاوية التجانية الكبرى بمصر، القاهرة، 2004، ص. 10.

[49]– الكبرى (محمد الناصر)، «**المرآة الصافية في بيان حقيقة التصوف وبعض رجاله ذوي المقامات العالية**»، المكتبة القادرية، كانو، ص.10.

[50]–السحمراني (أسعد)، م. س، ص. 15.

[51]–سي (السعيد)، «**الانتشار العالمي للطريقة التجانية وثمرة جهودها في التربية الروحية والاجتماعية**»، أعمال الملتقى الدولي للإخوان التجانيين، الأغواط، 2006، ص.16.

[52]– فروخ (عمر)، «**التصوف في الإسلام**»، دار

الكتاب العربي، بيروت، 1981، ص. 29.

[53]– التيجاني (سيدي المختار أحمد فال العلوي)، «**رسالة البيان والتبيان في أن الصوفية مذهبها القرآن والسنة**»، دار الرشاد الحديثة، الطبعة الأولى، 2008،ص. 31.

[54]– الدرزمي (أحمد)، «**الطريقة التجانية في المغرب والسودان الغربي خلال القرن التاسع عشر الميلادي**»، الجزء الأول، مطبعة فضالة، المحمدية، 2000، ص. 87.

[55]– بازينة (عبد الله سالم محمد)، المرجع السابق، ص. 207.

[56] – بدوي (عبد الرحمن)، المرجع السابق، ص. 26 .27.

[57] – وكالة المغرب العربي للأنباء: فاس كانت اختيار مؤسس الطريقة التيجانية لاحتضان الزاوية الأشهر والأكثر استقطابا في تاريخ إفريقيا والمغرب العربي. فاس، 2005/06/25.

[58] – مساوي (عادل)،»**علاقة المغرب بإفريقيا جنوب الصحراء بعد انتهاء القطبية الثنائية**»، أطروحة لنيل الدكتوراه في القانون العام، كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية، جامعة محمد الخامس أكدال، الرباط، السنة الجامعية 2003/2002، ص. 79.

. البيليوغرافيا:

. ابن خلدون (عبد الرحمان)، «**المقدمة**»، المجلد الثاني، المكتبة العصرية، دار البيان، بيروت.

. ابن سعد (محمد)،»**الطبقات الكبرى**»، الجزء 4، بيروت.

. ابن عامر (توفيق)، «**الصوفية والعقيدة الجبرية**»، مجلة دراسات فلسفية وأدبية، العدد 5 . 6، الدار البيضاء، 1980.

. أبو العرب (محمد بن أحمد بن تميم التميمي)، «**طبقات علماء إفريقيا وتونس**»، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

. الأصبهاني(أبو نعيم)،»**حلية الأولياء بالصوفي الأصفياء**»، الجزء 2، بيروت.

. التجاني (الشيخ أحمد)، «**التصوف الإسلامي: مبادئه ومقاصده وغاياته**»، مركز الدراسات الإسلامية، أبيدجان،1991.

. التجاني (محمد الحافظ)، «**علماء تزكية النفس من أعلم الناس بالكتاب والسنة**»، منشورات الزاوية التجانية الكبرى بمصر، القاهرة، 2004.

. التهامي (ابراهيم)،»**جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة: دراسة في الصراع العقدي في المغرب العربي من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الخامس**»، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، بيروت، 2005.

. التيجاني (سيدي المختار أحمد فال العلوي)، «**رسالة البيان والتبيان في أن الصوفية مذهبها القرآن والسنة**»، دار الرشاد الحديثة، الطبعة الأولى، 2008.

. الدرزمي (أحمد)، «**الطريقة التجانية في المغرب والسودان الغربي خلال القرن التاسع عشر الميلادي**»، الجزء الأول، مطبعة فضالة، المحمدية، 2000.

. الزاوي (الطاهر)، «**ترتيب القاموس المحيط**»، دار عالم الكتب، الرياض، 1996.

. السحمراني (أسعد)، «**التصوف: منشؤه ومصطلحاته**»، دار النفائس، بيروت، 2000.

. السلمي(ابن عبدالرحمن)، «**المقدمة في التصوف وحقيقته**»، تحقيق وتعليق حسين أمين، منشورات اتحاد المؤرخين العرب، بغداد، 1984.

. السهروردي (شهاب الدين أبي حفص عمر بن محمد بن عبدالله البغدادي)، «**عوارف المعارف**»، ضبطه

وصححه محمد عبد العزيز الخالدي، الطبعة الأولى، بيروت، 1999.

. الطنطاوي (محمود السعيد)، «**عشرات على طريق التصوف الرشيد**»، القاهرة، 1975.

. الغزالي (أبو حامد)، «**إحياء علوم الدين**»، الجزء الأول، دار الفكر، الطبعة الأولى، 2003.

. القشيري (أبو القاسم)،»**الرسالة القشيرية**»، تحقيق الإمام الدكتور عبد الحليم محمود، الدكتور محمود بن الشريف، دار المعارف، القاهرة.

. الكبرى (محمد الناصر)، «**المرآة الصافية في بيان حقيقة التصوف وبعض رجاله ذوي المقامات العالية**»، المكتبة القادرية، كانو.

. المجذوب (عبدالعزيز)،»**الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية**»، بيروت، 2008.

. المقدسي(محمد بن أحمدبن أبي البناء)، «**أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**»، لندن، 1906.

. أمين (أحمد)،» **ظهر الإسلام**»، الجزء 2، القاهرة، 1962.

. بازينة (عبد الله سالم محمد)، «**انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء**»، منشورات جامعة 7 أكتوبر، الطبعة الأولى، مصراته، 2010.

. بدوي (عبد الرحمن)، «**تاريخ التصوف الإسلامي**»، وكالة المطبوعات، الكويت، 1975.

. بن الطيب (محمد)، «**وحدة الوجود في التصوف الإسلامي في ضوء وحدة التصوف وتاريخيته**»، دار الطليعة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، بيروت، 2008.

. بن عبد الله (عبد العزيز)، «**معطيات الحضارة المغربية**»، الرباط، 1963.

. بن عبد الله (عبد العزيز)، «**معلمة التصوف الإسلامي**»، الجزء الأول، مطبعة المعارف الجديدة، الطبعة الأولى، الرباط، 2001.

. بن عبد الله (مصطفى)، «**كشف الظنون عن أساليب الكنى والفنون**»، استنبول، الجزء 1، 1941.

. جماعي، «**المعجم الوسيط**»، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 1972.

. سرور (طه عبد الباقي)، «**من أعلام التصوف الإسلامي**»، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، مصر.

. سي (السعيد)، «**الانتشار العالمي للطريقة التجانية وثمرة جهودها في التربية الروحية والاجتماعية**»، أعمال الملتقى الدولي للإخوان التجانيين، الأغواط، 2006.

. سيد أحمد (محمد الأمين)، «**السلطة والفقهاء في إمارة الترارزة**»، مطبعة المنار، 2003.

. سيلا (عبد القادر)، «**المسلمون في السنغال: معالم الحاضر وآفاق المستقبل**»، سلسلة كتاب الأمة، الدوحة، 1986.

. ظريف (محمد)، «**مؤسسة الزوايا بالمغرب**»، منشورات المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، 1992.

. عياض بن موسى (أبي الفضل)، «**ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**»، الجزء الأول.

. فروخ (عمر)، «**التصوف في الإسلام**»، دار الكتاب العربي، بيروت، 1981.

. مساوي (عادل)،»**علاقة المغرب بإفريقيا جنوب الصحراء بعد انتهاء القطبية الثنائية**»، أطروحة لنيل الدكتوراه في القانون العام، كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية، جامعة محمد الخامس أكدال، الرباط، السنة الجامعية 2003/2002.